عنوان المحاضرة الأولى:

السرد العربي القديم :

النشأة والتطور

عنوان المحاضرة الأولى – السرد العربي القديم : النشأة والتطور :

محاضرات في مقياس جماليات السرد العربي القديم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

نتطرق في المحاضرات الآتية لدراسة مواضيع السرد العربي القديم ،التي مثلت الوجه المشرق للأدب العربي القديم ووجدنا أثرها في الآداب العالمية،ونحاول عرض السمات الجمالية للنصوص السردية العربية، وإبراز خصائصها الفنية .

عنوان المحاضرة الأولى –السردالعربي القديم : النشأة والتطور:

إن مجال السرد هو قديم وعريق في تراثنا الأدبي، والعربي مارس أشكالًا عديدة من السرد في صورة بسيطة ولكن إذا جئنا لمصطلح السرد في حد ذاته،فهو حديث،وعادت بدايات تشكل السرد العربي إلى العصر الجاهلي وتطور مفهومه عبر العصور الأدبية ، وفي المستهل سنتعرف على مفهوم مصطلح السرد .

أولًا – تحديد مفاهيم بعض المصطلحات السردية:

نحاول تحديد مفاهيم بعض المصطلحات التالية : السرد والجمالية والسردية العربية، ونبدأ بتعريف مصطلح السرد.

1–مفهوم مصطلح السرد :

في تعريف مصطلح السرد نبدأ بمفهومه اللغوي أولًا ثم نعرض مفهومه في اصطلاح النقد الأدبي الحديث :

أ–السرد في اللغة : ورد مفهوم السرد عند ابن منظور في معجمه لسان العرب في قوله: « السَّرْدُ في اللغة تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تَأتي به مُتَّسِقًا بعضُه في أَثر بعض متتابعًا، وسرد الحديث ونحوه يسردهُ سَرْدًا إذا تابعه،وفلان يَسْرُد الحديث سردًا إذاكان جَيِّدالسياق لَهُ».

ومنه فمعنى السرد في المفهوم اللغوي هو التتالي والمتابعة في سرد الكلام في صيغة جيدة، ونذكر كذلك في الاستعمال اللغوي:«سَرد سَرْدًا وسِرادًا، الجلد:خرّزَهُ، الشيء :ثقبه الدِرع :نسَّجها، وسرد الدُّر؛ أي التتابع في النظام...وسرد الحديث أو القراءة:أجاد سياقهما،وسرد الكتاب :قرأه :بسرعة».

نلاحظ بأنه من المفاهيم اللغوية للسرد نذكر الدلالات الآتية :الترتيب والتتابع والاتساق والتسلسل في إلقاء الكلام وعرضه في صورة جيدة ومنتظمة،والسرد هو القراءة السريعة للنص .

ب– السرد في الاصطلاح: نتناول المفهوم الاصطلاحي للسرد في النقديين الغربي والعربي :

ب–1/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي الغربي الحديث :

وفي تحديد مفهوم مصطلح السرد في النقد الغربي الحديث نجد أن «مصطلح السرد narration يُحدد على أنه فعل القص، ونتيجة له،وهو عملية الإخبار المكتوبة أو الشفوية للوقائع والأحداث الواقعية أو المتخيلة».

ومنه فالسرد هو حكاية أخبار مكتوبة أوشفوية لأحداث وقعت بالفعل،وهو طريقة رواية أحداث القصص تتناول أحداث واقعية أو متخيلة «والسرد هو إجراء تعبيري يتمثل في استخدام الفعل بصيغة الحاضر الإخباري ».

شمل هذا التعريف للسرد على مفهوم عرض الأديب للأحداث الواقعية أو المتخيلة، والتعبير عنها صيغة حاضر السرد وفي سياق متصل عرَّف الناقد جيرار جينيت السرد Narration في قوله :«السرد هو مجموعة الأحداث المروية من الحكاية ؛ أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يرويه».

وهنا جمع جيرار جنيت في مفهومه للسرد بين الخطابات الشفوية و المكتوبة، ونلاحظ أن المفاهيم الغربية للسرد جمعت بين ماهو شفهي وكتابي ، وركزت على طريقة التعبير في السرد .

ب–2/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي العربي الحديث :

وردت مفاهيم كثيرة للسرد عند النقاد العرب ، ومنها ماذكره محمد صادق الرافعي في قوله:«السرد هو متابعة الكلام على الولاء والاستعجال به، ويراد به جودة سياق الحديث».

ركز محمد صادق الرافعي في تعريفه للسرد على خاصية سرعة إلقاء الكلام ، وحسن عرضه،وفي سياق متصل عرَّف الناقد عبد المالك مرتاض السرد بقوله:«السرد هو تتابع الماضي على وتيرة واحدة».

نرى بوجود توافق بين تعريفي محمد صادق الرافعي وعبد المالك مرتاض للسرد في ذكر خاصية التتابع في سرد الكلام،وأما الناقد سعيد يقطين فيرى بأن السرد « هو نقل الفعل القابل للتداول سواء أكان هذا الفعل واقعيًا أم تخيلًا وسواء تتداول مشافهة أم كتابة».

نلاحظ بأن تعريف سعيد يقطين للسرد دقيق ؛لأنه حدد جوانب هامة للسرد ارتبطت بحكي الأحداث الواقعية أو المتخيلة ،والشفاهية أو المكتوبة ،ونرى بأنه متأثر بتعريف الناقد جيرار جينيت للسرد.

ومنه إذن فالتعاريف المقدمة للسرد ركزت على مفهوم حسن عرض الكلام ، والمحافظة على مبدأ التقنية المرتبطة بالجودة الفنية في تأليف الكلام ،ولاحظنا كذلك هناك توافق بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في السرد في مفهوم صوغ الكلام في طريقة متتالية ومنتظمة ومتسقة .

2– مفهوم مصطلح السردية العربية :

في البداية نعرف مصطلح السردية «ونعني به الطريقة التي تروى بها الحكاية المزايا التي تجعل من المحكي سردًا ».

نوظف مصطلح السردية العربية، وهنا لايحيل هذا المصطلح على مقصد عرقي عربي؛ وإنما القصد منه الإشارة إلى المرويات العربية القديمة ذات الطابع القصصي، ونعني به صفة السرد العربي لتمييزه عن أنواع السرد الأخرى .

3–مفهوم مصطلح الجمالية Esthétisme :

إنَّ الجمالية هي مصطلح حديث ، والجمالية هي « نزعة مثالية تبحثُ في الخلفيات التشكيلية للإنتاج الأدبي والفني ، وترمي إلى الاهتمام بالمقاييس الجمالية بغض النظر عن الجوانب الأخلاقية».

ارتبط مصطلح الجمالية بالجوانب الفنية المتصلة بالشكل الفني للنصوص السردية، ويتجاهل المضامين الأخلاقية والدينية، والجمالية هي بحث في طرق تصوير الجمال الفني في النصوص السردية «والجمالية درس فلسفي يُعالج قضية الجمال ،وهو علم موضوعه حكم تقديري يُميز الجميل من القبيح كما أنه درس يُعالج الفن عمومًا الفن عمومًا والفنون خصوصًا، وبالتفكير في الجمالية بوصفها فلسفة

ظهرت لجمالية الأدبية في نظرية عامة للجميل».

رصد النقاد العرب في التراث الأدبي العربي شيوع مصطلحات من قبيل:الحكاية والقصة بعد أن زحزح مصطلح الخبر الحديث وكذلك النادرة والمثل...الخ، وهذه المصطلحات متحركة ومتغيرة المفهوم بحسب الشروط التاريخية والاجتماعية، التي أحاطت بالسرد العربي القديم».

ومنه إذن تناولنا مفاهيم المصطلحات "السرد، السردية العربية ،الجمالية "لما لها صلة مباشرة بمواضيع جماليات السرد العربي القديم، ولكونها مصطلحات مفاتيح لهذا المجال ، ولاحظنا أن مصطلح السرد اكتسب خصوصية عربية في تراثنا الأدبي العربي.

ثانيًا – نشأة السرد العربي وتطوره :

مرَّ السرد العربي بمراحل تطوَّر هامة تغيّر فيها من حيث مفهومه وأشكاله ، وسنأتي على ذكرها :

1–السرد في العصر الجاهلي:

في البداية نشير إلى أنَّ السرد العربي في العصر الجاهلي كان « شفويًا على ألسنة الرواة ،ولقد تعرض إلى تحريف وتغيير في معظم المرويات السردية، وإذا كانت القصة الجاهلية فكرة وأحداث وشخصيات؛ فإن السرد فيها كان كتابيًا متأخرًا حاول المحافظة على الروح الجاهلية، وكان للاحتكاك العرب بالقبائل المجاورة(الفرس،الروم) تأثير في أساطيرهم وحكايتهم، التي شغلت مساحات واسعة من عالم السردية العربية ، وكانت ملتقى لثقافات متعددة (كالوثنية والمجوسية والمسيحية) » .

ساد الطابع الشفوي للمرويات الحكائية في السرد الجاهلي، فكانت كل قصص العرب وحكايتهم تتداول مشافهة، وبتأثير التفاعل بين العرب والقبائل المجاورة ، وكان له أثّرٌ في صياغة قصصهم ، وكذلك في العصر الجاهلي « وكثيرًا ماكان يلجأ الشاعر إلى السرد عندما يتذكر أحبته كما فعل امرئ القيس حينما يتذكر».

سردت القصائد الشعرية لشعراء الجاهلية (الصعاليك) الحكايات العاطفية أو قصص البطولية لشعرائها ، وسجلت الأحداث التاريخية أو الاجتماعية بأسلوب سردي ممتع وشيق.

2–السرد في العصرين الإسلامي والأموي :

ارتبط السرد العربي بجهود الرواة، وانتقل فن الرواية نقلة نوعية في العصرين الإسلامي والأموي «وتنقطع سلسلة الرواة عند القرن الأول للهجرة، وقد تصل إلى زمن الدعوة الإسلامية ليس أكثر ، ففن الرواية فن إسلامي بدأ بعلم الحديث النبوي الشريف، وبدأ القص الإسلامي في الزمن النبوة،وكان القصاص يثيرون فيهم الحماسة الدينية».

أثارت القصص الإسلامية الحماسة الدينية في نفوس الناس،وظهر لون جديد من السرد متأثر بفن الرواية الإسلامي «ولم تكن العصور الأولى تفرض على الخائضين في هذا المجال (القص) قيودًا أو مقاييس تاريخية مافرضه الدين الإسلامي من تفادي التحريف ،لذلك تمازجت القصص والأثار ،حدث ثمة تداخل بين الجانبين الأدبي والتاريخي».

لقد كان للإسلام تدخل مباشر في توجه السرد العربي ،وإن رواية الحديث النبوي وأخبار الرسول (ﷺ) شكلت البداية الفعلية لما يعرف بالقصص الإسلامي، الذي هو مختلف في توجه وغاياته عن القصص الجاهلي، ولقد ظهر لون جديد في السرد العربي اصطلح

على تسميته بالقصص الإسلامي ،وبدأ القصص العربي القديم وثنيًا متأثرًا بأساطير وخرافات الشعوب القديمة في العصر الجاهلي «والسرد في العصرين الإسلامي والأموي ليس على شاكلة واحدة، فهو متنوع إلى سرد ديني أو تاريخي أو أسطوري ،ونجد أن القص العربي «في زمن معاوية أصبح له شأن كبير، واقتران القصُّ بالشعر ، وهو الشكل الذي ظل سائدًا في القصص العربي طوال قرون من الزمن...ثم تطور دينيًا متأثرًا بمفاهيم الإسلام وتعاليم القرآن الكريم وأحاديث الرسول(ﷺ) وتوسع إلى أغراض سياسية على أيام الفتنة (بين معاوية وعلي) وثم تطوَّر في زمن معاوية إلى قصص تاريخي وأسطوري».

حصل تداخل بين الشعر والنثر في مجال القصص العربي ، وهو سمة ميزت بعض النصوص السردية العربية القديمة ولاحظنا بأن السرد تطور في العصر الأموي، فظهرت أشكال عديدة (السرد الأسطوري والتاريخي والديني).

3-السرد في العصر العباسي:

شهد السرد العربي في العصر العباسي تطورًا ملحوظًا « فإذا كان العلماء قد صاغوا المواد القصصية بأسلوبهم محافظين (بعض الشيء) على نكهتها الشفوية ؛ فإن هناك قصصًا شفويًا خالصًا ظل يتداول في كل مكان على أفواه القصاص ، وقد لمع عدد من القصاص المشهورين في هذا العصر ،ومنهم : عبد الله موسى الأسواري».

انتشر في العصر العباسي تدوين القصص على نطاق واسع مع بقاء الطابع الشفاهي لتلك القصص ، وفي العصر العباسي حصل تدوين السيرة النبوية « وتعد السيرة النبوية أول عمل تأسيسي لفن السير، وقد قام ابن هشام بتهذيب السيرة النبوية لأن السيرة النبوية التي أخذها عن ابن إسحاق، وبغض النظر عن صحة مروياتها فيها، وتعد السيرة النبوية أهم نص سردي أرَّخ لحياة الرسول محمد (ﷺ) وأثر في مسار تطور فن السير العربية».

يعد عمل تدوين السيرة النبوية أهم حدث لما له من أهمية في تأليف السير العربية «وكما بدأ تدوين المغازي والأخبار وسير التاريخ..الخ ،ومن المؤلفات السردية الهامة فيه نذكر: الفهرست لابن النديم، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني والبيان والتبيين للجاحظ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، وهنا لايمكن إغفال جهود المترجمين، ويأتي على رأسهم ابن المقفع في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة،وهي قصص على لسان الحيوان،وهو مايُعد من أجّل أعماله» .

تجدر الإشارة إلى أن السرد في العصر العباسي تأثر بالأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية في المجتمع العباسي،واستمد الفن القصصي الكثير من الألوان السردية والسمات ، ومنها: **السخرية** «التي طبعت معظم الأعمال السردية بدءًا بسخرية الجاحظ في كتابه البخلاء ،ومرورًا بتهريج أبي القاسم البغدادي،ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وانتهاءًا بسخرية أبي العلاء المعري المريرة في رسالته الغفران». وانتشرت السخرية في معظم الأعمال السردية في القرن الرابع الهجري فظهرت في بخلاء الجاحظ ومقامات بديع الزمان الهمذاني «وتأثر أبو العلاء المعري بحادثة الإسراء والمعراج للرسول(ﷺ) أثناء سرده لوقائع قصصه، وانتشر فن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني ، ووسع نطاق هذا الفن، وأتم صناعته اللفظية».

استلهم المعري في تأليف رسالته الغفران من واقعة الإسراء والمعراج الخاصة بالنبي محمد (ﷺ) ،وكان سرده عجائبي فيها «وظهر **لون**

السمر في الليالي ، ومن أبرزها ماجاء في قصص ألف ليلة وليلة ، والمغربي عنده مئة ليلة وليلة وقد منحت الليالي العربية ميزة سردية نادرة للسرد العربي القديم».

ظهرت سمة السرد في الليالي كنمط جديد في السرد العربي القديم «وانفرد السرد في قصص الليالي بميزة خاصة أشهرها ماجاء في حكايات ألف ليلة وليلة ، وبرز **أدب المجالس** في السرد مثلما ظهر عند أبي حيان التوحيدي، فظهر أثر المجالس والمناظرات في المقامات كالمقامة القريضية والحمدانية،وفي رسالة الغفران،التي هي عبارة مجالس خيالية ومناظرات،وبالإضافة إلى ذلك ظهرت **حركة الزهد والتصوف** عند عبد الجبار النفري الذي أضاف إلى القصص الديني مادة غنية مشحونة بالخيال الشعبي، وأسهم القصص في تغذيتها».

كانت نصوص النفري متفردة من حيث الصياغة الأسلوبية والطابع الصوفي الذي انفرد به عن غيره من المتصوفة.

ومنه إذن مميّز السرد العربي في العصر العباسي هو ظهوره التخصص في فنون سردية عديدة، وتنوع فنونه وألوانه (المغازي ،المقامات) وتوسعت مجالات السرد العربي فيه.

4–السرد في عصر الانحطاط :

نشير إلى أنَّ عصر الجمود والضعف لايعني ضعف الكتابة في كل فنون السرد العربي القديم ، فهناك استثناء، ففي هذا العصر انتشر تدوين الرحلات، وظهرت مؤلفات الرحلات على نطاق واسع ،ومن أبرزها:مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي،ورحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار «وإذا أردنا أن نعرض ملامح من هذه المؤلفات على مر العصور ،فإننا نجد أن القرن العاشر الميلادي يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام ، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطور الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها"».

إذا كان العصر العباسي هو عصر التطور وازدهار للسرد العربي القديم؛ فإن عصر الجمود على خلاف ذلك ؛ إذ شهد تراجعًا في بعض فنون السردية .

وفي الأخير نقول بأن السرد العربي القديم عريق وأصيل، نشأ وتطور في إطار ظروف ثقافية واجتماعية خاصة صبغته بطابع عربي إسلامي ميزه عن بقية الفنون السردية الأجنبية .